شعراؤنا

ديوان أبي العتاهية

قدم له وشرحه

مجيد طراد

الناشر
دار الكتاب العربي

جميع الحقوق محفوظة
لدار الكتاب العربي
بيروت

الطبعة الأولى

١٤١٥ هـ ١٩٩٥م

دار الكتاب العربي

الطابق الثامن - بناية بنك بيبلوس - فردان - تلفون: ٨٦١١٧٨/٨٠٠٨١١/٨٦٢٩٠٥
تلفاكس: ٤٧٨١٤٣١ (١٢١٢) تلكس: L.E ٤٠١٣٩ كتاب برقياً: الكتاب. ص.ب: ٥٧٦٩-١١ بيروت - لبنان

القسم الأول
ترجمة الشاعر

مقدمة

١ ـ اسمه، لقبه، نشأته:

هو أبو إسحٰق إسمعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان العنزي بالولاء، المعروف بأبي العتاهية. شاعر مُكثر مشهور، من شعراء الدّولة العبّاسيّة في عهدها الأوّل. أصل أهله من نصارى عين التّمر في العراق، قرب الأنبار، فلمّا فتحها خالد بن الوليد ١٢ هـ (٦٣٣ م) سُبي كيسان، جدّ أبيه.

ولد أبو العتاهية بعين التّمر، أو بالكوفة، ونشأ في الكوفة في طبقة وضيعة من المجتمع حيث كان والده يعمل حجّاماً واشتغل هو وأخوه زيد وبعض أهله بصناعة الجرار، وفي خدمتهم عبيد من السّودان يشوون الخزف في أتون لهم. وكان أبو العتاهية يتولّى بيع هذه الجرار في أسواق الكوفة، ومنه لقبُهُ «الجرّار» في بعض المراجع والنّصوص. وهذه النّشأة الوضيعة أثّرت في الشّاعر، وأسهمت في تكوين عقليّته لناحية تفضيل التّقوى على العزّ والرفعة، والإشادة بالزّهد وحسن الخُلق على حساب شرف النّسب وسموّ الأصل. وقد بدا ذلك واضحاً من اعتذاره عن مهنة والده حيث يقول:

ألا إنّما التّقوى هي العزّ والكرمْ ... وحبُّك للدّنيا هو الفقرُ والعدمْ
وليس على عبدٍ تقيٍّ نقيصةٌ ... إذا صحّحَ التّقوى، وإنْ حاكَ أو حَجَمْ

والشّاعر يردّ على الكناني الذي فاخره بنسبه مستطيلاً بشرف قومه ونسبهم فيقول:

دعني من ذكرِ أبٍ وجدّ ... ونسبٍ يُعليكَ سورَ المجدِ
ما الفخر إلّا في التّقى والزّهدِ ... وطاعةٍ تُعطي جنانَ الخُلْدِ

وأبو العتاهية مال إلى قول الشّعر منذ مطلع شبابه، حيث روي أنّه مرّ بفتيانٍ يتناشدون الشّعر، وكان حاملاً على ظهره قفص فخّار ليبيعه، فقال: «أراكم

تتذاكرون الشّعر. فأنا أقول لكم شيئاً، فإن أجزتموه، فلكم منّي عشرة دراهم. وإلاّ فلي منكم مثلها». فسخروا به، وقالوا: «نعم». فجعل رهنه في يد أحدهم وقال: «نشتري بالقمْر رُطَباً». ثمّ أنشد:

ساكني الأجداثِ أنتمْ ....

وقال: «أجيزوه» وجعل بينه وبينهم وقتاً في ذلك الموضع، إذ بلغته الشّمس ولم يجيزوا البيت، فهزىء بهم وتمّمه بقوله:

مثلَنا بالأمسِ كنتمْ ....
ليت شعري ما صنعتمْ أربحتمْ أمْ خسرتُمْ

ثمّ راح طلاّب الشّعر يتوافدون على أبي العتاهية في محل بيعه الفخّار، فإذا سمعوا منه البيت الحسن أو المثل السّائر، كتبوه على قطع الفخّار المتكسّر. وظلّ على ذلك حتّى استُكملت ملَكته الشّعريّة، وأحكم تعبيره، واستقام نظمه. على أنّه لم يتمكّن من الثقافة الشّعريّة العربيّة الأصيلة ذات النّمط الجاهلي، فمال إلى اللّفظ السّهل المأنوس اللّطيف القريب من الطّبع. ونتيجة لذلك شُهر باستعمال الأوزان القصيرة، وقد نسب إليه اختراع بحر «المضارع» كما انتُقد لأنّه خالف أحكام العروض في بعض منظوماته. وكان يردّ على هؤلاء قائلاً: «أنا سبقتُ العروض».

وحين لمع نجمه في سماء الشّعر، انخرط في حلقات الشّعراء الشّبّان اللاّهين، فعاشر أهل الخلاعة والمجون. فالتحق بمجالس والبة بن الحباب، وأبي نواس وصريع الغواني وغيرهم من المتهتّكين. وذكر من صفاته أنّه كان نظيف المظهر، حسن الهيئة، لبقاً ظريفاً، أبيض اللّون أسود الشّعر له وفرة جعدة. وهو إلى ذلك سريع الخاطر، حاضر البديهة، حسن التّخلص.

٢ ـ عشقه:

كان الشّاعر يتعشق جارية للمهديّ من جواري امرأته بنت أبي العبّاس السّفّاح تدعى عُتبة، وفيها نظم معظم غزله اللّطيف. لكنّه لم يوفق في حبه. وذكر الحصري أنّ الشّاعر أغضب المهديّ بذلك، حتّى أمر بضربه مائة سوط، ونفاه إلى الكوفة، قائلاً:

«أبي يتمرّسُ؟! ولِحَرمي يتعرّضُ؟ وبنسائي يعبث؟». وقال ابن قتيبة: إنّه

حبسه، حتى شفع له يزيد بن منصور، خال المهديّ، فأطلقه. ثمّ انقطع عن ذكر عتبة، حتّى توفّي المهديّ، فعاد إلى التغزّل بها. ثمّ طلبها من الرّشيد، فرفضته، وحين همّ الرّشيد بأن يدفعها إلى أبي العتاهية خرجت إليه وقالت: «يا أمير المؤمنين، على حرمتي، وخدمتي، تدفعني إلى رجل قبيح المنظر، بائع جرار، ومكتسب بالعشق؟» فأعفاها.

ويجعل الدّارسون فشل أبي العتاهية في حبّ عتبة من أبرز الأسباب التي دفعته إلى اليأس من الدّنيا والامتناع عن قول الغزل حتّى تعرّض إلى السجن على يد الرّشيد لامتناعه عن قول الغزل. وإلى هذه النّاحية يشير أبو العلاء المعرّي حين يشكّ في صدق الشّاعر وإخلاصه في زهده وتنسّكه حيث يقول:

اللّهُ ينقلُ مَنْ شاءَ رُتْبَةً بعد رتبَهْ
أبدى العتاهيُّ نُسْكاً، وتاب عن حبّ عُتْبَهْ

وذهب بعض الدّارسين إلى اعتبار الزهد عند أبي العتاهية مذهباً فنيّاً اختاره الشّاعر لنفسه واطمأنّ إليه، وسعى إلى بلوغ الشّهرة الأدبيّة على أساسه. على أنّ الشّاعر كان في حياته العمليّة أبعد ما يكون عن الصّورة التي رسمها في شعره. فقد روى ابن منظور في أخباره عن أبي نواس أنّ أبا العتاهية جاء إلى أحد رفاق أبي نواس وكان يدعى أبو مخلد الطّائي قائلاً له: «إنّ أبا نواس لا يخالفك. وقد أحببت أن تسأله ألاّ يقول في الزّهد شيئاً. فإنّي قد تركت له المديح، والهجاء والخمر... وللزّهد شوقي». فبعث أبو مخلد إلى أبي نواس قائلاً: «إن أبا إسحٰق (أي أبا العتاهية) مَنْ قد عرفتَ جلالته، قد أحبّ أنّكَ لا تقول في الزّهد شيئاً». فوجم أبو نواس عند ذلك، وقال: «يا أبا مخلد، قد قطعتَ عليّ ما كنتُ أحبّ أن أبلِغَه من هذا... ولا أخالف أبا إسحٰق في ما رغب إليه».

وكان هذا التّحوّل في حياة الشّاعر واعتناق مذهب الزّهد بحدود السنة ١٨١ هـ بعد قدوم الرّشيد مدينة الرّقّة، وأبو العتاهية في الخمسين من عمره. وفي كتاب الأغاني كثير من الرّوايات التي تثبت علاقةّ عتبة بتنسّك الشّاعر.

٣ ـ بخله:

إنّ اتّجاه أبي العتاهية ناحية مذهب الزّهد والتّنسّك الذي ازدهر في ذلك العصر، لم يمنعه من جمع المال، والانصراف إلى حطام الدّنيا، والشّحّ، حتّى

غدا الشّاعر حديث الظّرفاء وطلّاب النّوادر الذين راحوا يقارنون بين ما يقوله أبو العتاهية في شعره وما يفعله في حياته العمليّة. من هذه الأخبار أنّ سائلاً من الظّرفاء وقف ذات يوم على أبي العتاهية، وحوله جماعة من جيرانه. فسأل أبا العتاهية دونهم. فردّ عليه قائلاً: «صنع الله لك!». فأعاد السّؤال ثانيةً. فردّه عليه. فأعاده ثالثة. فغضب. فقال له السّائل: «ألست الذي يقول»:

سَكَنٌ يبقى له سَكَنُ؛   ما بهذا يؤذنُ الزّمنُ!
نحن في دار يخبّرنا   ببلاها ناطقٌ لَسِنُ
دارِ سوءٍ لم يَدُمْ فرحٌ   لامرىءٍ فيها ولا حَزَنُ!
في سبيل اللّه أنفسُنا   كلُّنا بالموتِ مرتهنُ
كلُّ حيٍّ عند ميتته   حظُّه من ماله الكفنُ
إنّ مالَ المرء ليس له   منه إلّا ذِكْرُهُ الحَسَنُ!

قال: «نعم». قال: «فبالله عليك، أتريد أن تعدَّ مالك كلّه لِثَمنِ كفنك؟».

قال: «لا!». قال: «كم قدّرتَ لكفنك؟» قال: «خمسة دنانير!» قال: «فاعمل عليّ أنّ ديناراً من الخمسة وضيعةُ قيراط. وادفع إليّ قيراطاً واحداً، وإلّا فآخر». قال: «وكيف ذاك؟» قال: «القبور تحفر بثلاثة دراهم. فأعطني درهماً، وأقيم لك كفيلاً بأن أحفرَ لك قبرك، متى متّ. وتربح درهمين لم يكونا في حسابك. فإن لم أحفر رددته على ورثتك، أو ردّه كفيلي عليهم».

فخجل أبو العتاهية وقال: «أُغْرُبْ، لعنك الله! وغضب عليك!» وضحك جميع من حضر. ومرَّ السائل يضحك. فالتفت أبو العتاهية وقد اغتاظ، فقال:

«من أجل هذا وأمثاله حُرِّمت الصَّدَقة!» فقال أحدهم متعجّباً: «ومن حرّمها ومتى حُرِّمتْ؟».

وقد انتشر بين النّاس ذكر هذا التّناقض بين مسلك أبي العتاهية في حياته وشدّة حرصه على الدّنيا، والبخل، وشعره في الزّهد والتنسّك. على أنّ الشّاعر لم يقصر شعره على الزّهد وحده وإن كان لبس الصّوف واعتزل النّاس في حادثة مسرحية تُروى عنه. فشعره حافل بالقصائد التي قالها مدحاً ورثاء وهجاء وعتاباً ووصفاً في مجالس الخلفاء، ومحافل الأدباء، مع ميل واضح إلى الحكمة والموعظة وضرب المثل السّائر.

٤ ـ اتّصاله بالخلفاء:

كان شعر أبي العتاهية وسيلته في الاتصال بخلفاء بني العبّاس ابتداء بالمهدي ومروراً بالهادي والرّشيد والأمين والمأمون، وقد ساعده في ذلك صديقه إبراهيم الموصليّ المغنّيّ حتّى غدا الشّاعر من رجال الحاشية، يحضر مجالس الخلفاء ويطربهم بشعره، فتبلغ به الدّالّة أحياناً إلى أن يغضبهم ويأبى عليهم ما يطلبونه من شعر، فيأمرون بجلده، وبسجنه أحياناً، ثمّ يرضون عليه فيجزلون له العطاء.

وكان أوّل اتصال له، على ما يبدو، بالمهديّ وكان شاعراً ناشئاً جاء من الكوفة يهنّىء الخليفة بالخلافة، وكان الشّاعر بشّار بن برد في مجلس المهدي حين ألقى هذه القصيدة وقد طرب لبعض أبياتها حيث يقول:

أتته الخلافةُ مُنقادةً   إليه، تُجرِّرُ أذيالها
ولم تكُ تصلحُ إلّا له   ولم يكُ يَصْلحُ إلّا لها
ولو رامها أحدٌ غيرُهُ   لزلزلتِ الأرضُ زلزالها
وإن الخليفة من بغض «لا»   إليه، لَيُبْغِضُ مَنْ قالها

فاهتزّ بشّار طرباً وسأل كيف سيكون وقع هذا الكلام على الخليفة وبماذا سيكافىء هذا الشاعر القادم من الكوفة.

ثمّ كان اتصاله سنة ٧٨٥ م بالهادي الذي دام سنة واحدة لقصر مدّة خلافته، وكان الخليفة غاضباً على الشّاعر لانقطاعه إلى أخيه هارون في عهد أبيهما، على أنّه لم يلبث أن رضي عنه. ولأبي العتاهية في مدح الهادي الرّائيّة الشهيرة التي مطلعها:

لهفي على الزّمن القصيرِ   بين الخورنق والسّديرِ
إذ نحن في غُرَفِ الجنا   نِ، نَعومُ في بحر السّرورِ

أمّا في عهد الرّشيد (٧٨٦ م ـ ٨٠٩) فقد بلغ الشّاعر ذروة شهرته بين شعراء البلاط حتّى أصبح ملازماً للخليفة لا يفارقه في سفر وكان يسانده في ذلك، صديقه إبراهيم الموصليّ والفضل بن الرّبيع.

غير أنّ الشّاعر نال من نقمة الرّشيد كما نال من نعمته، حين أمر بحبسه مع إبراهيم الموصليّ لأنّهما رفضا قول الشّعر والغناء، حتّى أنّه حفر لهما حفرة واسعة وقطع بينهما بحائط، وقال: «كونا بهذا المكان لا تخرجا منه حتّى تُشعر أنت،